مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد ٤ – عدد ٢ (٢٠٢٤): ٢٢٥-٢٣٩

Damascus University Journal of arts and humanities sciences Vol 4–No.2 (2024):225-239

# مفهوم الكلمة الداخلية (verbum intimum) عند أوغسطين

د . ياسر كمال مراد[1]

1- أستاذ مساعد، قسم الفلسفة، كلية الآداب الثانية، جامعة دمشق.
yasser.murad@damascusuniversity.edu.sy

## الملخص:

تُعدُّ الكلمة الداخلية عند أوغسطين الأساس الذي يقوم عليه الفعل الإنساني سلوكياً أو لغوياً، ويوضح الكيفية التي تساهم فيها المعرفة في تكوين الوعي الإنساني من ناحية، ومن ناحية ثانية يبيّن كيفية تجلي هذا الوعي في الفعل واللغة الاصطلاحية المنطوقة التي تُعَدُّ تمظهراً وتجلياً للكلمة الداخلية التي لا تعرف لغة ولا صوتاً، وهي فكرة تبقى عند صاحبها حتى يتم التعبير عنها لتصبح معروفة. إن العلاقة بين الفكر والواقع الإنساني هي علاقة وطيدة تُعبّر عن الجدلية التي يساهم فيها الواقع في تكوين التفكير، ويبيّن أثر التفكير في تشكيل الواقع وفقاً للعلم والمعرفة الإنسانيين، وليبيّن أوغسطين هذه المسألة يعقد مقارنة بين الخلق الإلهي من خلال الكلمة والخلق الإنساني –إن صح التعبير– ليوضّح أن الفعلَين متشابهان من حيث المبدأ، فكل فعل مسبوق بكلمة داخلية، إلا أن الكلمة الإلهية صادقة دوماً لمطابقتها لعلمٍ ثابتٍ أزليّ، والكلمة الإنسانية متغيرة لأنها تنشأ عن علم متغيّر متبدل تبعاً لموضوعه.

**الكلمات المفتاحية:** أوغسطين، الكلمة الداخلية، الوعي واللغة، الخلق الإلهي والخلق الإنساني، علاقة التفكير باللغة.

تاريخ الإيداع: ٢٠٢٣/١٢/٠٤
تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠١/٢١

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

ISSN (online )
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index

# The concept of the inner word (verbum intimum) by Augustine

**Dr. Yasser Kamal Murad** [1]
1- Assistant Professor, Department of Philosophy, Second Faculty of Arts and Humanities, Damascus University.
yasser.murad@damascusuniversity.edu.sy

## Abstract:

According to Augustine, the inner word is the basis on which human action is based behaviorally or linguistically. He explains how knowledge contributes to the formation of human awareness on the one hand, and on the other hand he shows how this awareness is manifested in action and in conventional spoken language, which is considered a manifestation of the inner word which has not Language and sound. It is an idea that remains with its owner until it is expressed and known. The relationship between thought and human reality is a close relationship that expresses the dialectic in which reality contributes to the formation of thinking, and shows the effect of thinking in shaping reality according to human science and knowledge. To clarify this issue, Augustine draws a comparison between divine creation through the word and human creation - so to speak - to clarify that the two actions are similar in principle, as each action is preceded by an internal word, but the divine word is always true because it conforms to a fixed and eternal knowledge, and the human word is variable because it arises from a variable knowledge that changes according to its subject.

**Keywords:** Augustine, The inner word, Consciousness and Language, Divine creation and human creation, The relationship of thinking to language.

Received: 04/12/2023
Accepted: 21/01/2024

**Copyright:** Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

## المقدمة:

إن التأسيس لضرورة وجود اللغة معرفياً يتطلب دراسة كيفية تشكّل البنية المعرفية في العقل الإنساني التي تُعدُّ الأساس الذي يعتمد عليه نشـوء اللغة على اعتبار أنها تُشـكّل المرحلة العامة بين البشـر جميعاً، والتي يمكن أن نطلق عليها مرحلة ما قبل اللغة أو ما وراء اللغة. ضـمن هذا السياق تطرقنا في بحثنا هذا لموضـوع اللغة الداخلية عند أوغسـطين، حيث أطلق على الفكرة التي تنشـأ في العقل اسم الكلمة الداخلية، وهي وليدة العلم الذي يحصّـله الإنسـان إمّا بناءً على خبرته الخاصــة بالعالم وموجوداته، وإمّا بالاعتماد على خبرات الآخرين ومعارفهم، وفي كلتا الحالتين تنشأ كلمة تُعدُّ وليدة العلم الموجود في العقل الإنساني.

يهدف بحثنا هذا إلى التركيز على قضـيتيّن أسـاسـيتيّن تناولهما أوغسـطين؛ الأولى تتعلق بعلاقة الكلمة الداخلية بالعلم الذي نشـأت عنه، وهذا يحيلنا إلى اســـتعراض مبدأ التطابق على اعتبار أنه معيار صـــــدق الكلمة الداخلية، فالكلمة –طالما أنها وليدة العلم الإنسـاني الموجود في الذاكرة– لا بدَّ لها –حتى تكون صـادقة– أن تطابق هذا العلم، لذا فإن الكلمة الداخلية صـادقة دائماً حتى لو كان العلم الذي نشأت عنه خاطئاً، ومسألة خطأ العلم الإنساني يضع مصـادر هذا العلم موضـع التساؤل، ويجعل قضـية وجود علم ثابت معصوم ترتكز عليه الكلمة الداخلية أمراً مهماً، بالإضـافة إلى ذلك فإن الكلمة الداخلية في هذه الحالة تبقى في العقل الإنساني على شكل فكرة لم يتم التعبير عنها أو لم تجد تمظهرها بعد.

القضـية الثانية تتعلق بمسألة تجلي الكلمة الداخلية وتمظهرها حتى تصبح معروفة. ضـمن هذا السياق يناقش أوغسطين بدايةً علاقة الكلمة الداخلية باللغة الخارجية، حيث يبيّن أن أسـاس اللغة موجود في العقل؛ فاللغة في البداية هي ظاهرة عقلية تأخذ شـكل الكلمة الداخلية غير المنطوقة، ومن ثم تتحول إلى ظاهرة مادية تأخذ شـكل الكلمة المنطوقة التي يتم إدراكها من خلال حاسـة السـمع، أو الكلمة المكتوبة التي تدركها حاسة الرؤية، وفي كلتا الحالتين ترتدي الكلمة الداخلية لبوساً مادياً، إلا أنها تخاطب العقل؛ لأن الحاسة وُجِدَت لتدرك ما خُلِقَتْ من أجله، وإدراك المعنى الكامن في الكلمة يبقى وظيفة العقل وحده. وقد يأخذ التعبير عن الكلمة الداخلية شكلاً آخر ليس لغوياً، وإنما شكل الفعل أو السلوك، وهنا ننتقل من الشكل النظري الذي تأخذه الكلمة الداخلية –إن صـح التعبير– على شكل فكرة داخلية تتضـمن حكماً أو قصـداً محدداً إلى الظهور العملي الذي يتجلى في فعل أو سـلوك محدد، وهنا تأخذ الكلمة الداخلية شكل الدافع الذي يؤدي إلى تحقيق وإتمام فعل محدد تُعبّر عن ذاتها من خلاله، وتغدو هنا أساس الفعل الإنساني ومعياره.

لا بدَّ أيضاً من التأكيد على الأسبقية الأنطولوجية للأشياء على نشوء أية لغة أو كلمة داخليّة كانت أم خارجيّة، فوجود الشيء يؤدي إلى تكوين معرفة عنه تسهمُ في نشوء مصـطلح لغوي يدل عليه، لكن في حال عدم معرفة الشـيء لا يمكن معرفة علام تدل الكلمة المنطوقة من ناحية، ومن ناحية ثانية لن تنشأ في العقل كلمة داخلية تخصه؛ لأن الكلمة الداخلية تتولد بالأساس من العلم بالأشياء، وهذا العلم يوجد في العقل على شكل صور وانطباعات ومفاهيم.

إن معالجة أوغســطين للكلمة الداخلية في عمله "الثالوث" (De trinitate) لم تكن منفصـــلة عن أعماله الأخرى التي وضّـــح فيها طبيعة اللغـة ووظيفتها والغـايـة منهـا، كمـا هو الحـال في محـاورة "المعلّم" (De magistro)، التعلّيم المســـيحي (De doctrina christiana)، والديالكتيك (De dialectica) التي بيّن فيها أن نشـــوء اللغة يرتكز على الجانب المعرفي الذي يســـبق الجانب الاصـطلاحي؛ فضـرورة الاصـطلاح اللغوي تنشأ من ضـرورة التعبير عن الفكرة (الكلمة الداخلية) التي تنشأ عن العلم الذي يحصّـله الإنسان، فالحديث الداخلي الذي قوامه الأفكار يُشكّل وعاء الخبرة الإنسانية، وحتى يتم التعبير عنه لا بدَّ من وجود لغة اصطلاحية متواضع عليها منطوقة كانت أم مكتوبة. بالإضـافة إلى ذلك فإن عملية الخلق التي يقوم بها الإنسان، إن كان على المستوى اللغوي

أو على مستوى العمل والسلوك، تتم من خلال الكلمة الداخلية، وقد عقد أوغسطين مقارنة بين عمل الله من خلال كلمته وعمل الإنسان آخذاً بعين الاعتبار أن كلمة الله تنشأ عن علم ثابت، وهي صادقة دوماً، في حين إنَّ علم الإنسان متغيّر متبدل مما يؤدي إلى نشوء كلمة قد تكون خاطئة.

لقد ركّزت الدراسات السابقة على دراسة الكلمة الداخلية ضمن السياق اللاهوتي الذي بحثه أوغسطين، وبيّنت العلاقة بين الكلمة الداخلية والكلمة الخارجية، وهناك من رأى أن أوغسطين يعطي الأولوية للفكر على اللغة والسلوك؛ لذا سعينا في بحثنا هذا إلى التأكيد على وجود علاقة جدلية تربط بين الواقع والفكر، فالإنسان قادر على التعامل مع واقعه انطلاقاً من الواقع ذاته، حيث يتحول العالم إلى ظواهر ومفاهيم عقلية تأخذ شكل العلم الذي تنشأ عنه كلمة داخلية يكون لها دور في تحديد سلوك الإنسان وكيفية تعامله مع واقعه، إما نظرياً من خلال التعبير عنه لغوياً وإمّا عملياً من خلال السلوك أو العمل الذي يهدف الإنسان من خلاله إلى تغيير هذا العالم وفقاً للفكرة (الكلمة الداخلية) الموجودة لديه؛ لذا سعينا إلى إبراز كيفية نشوء الكلمة الداخلية وبيّنا الأسبقية الأنطولوجية للموجودات على نشوء أية لغة داخلية كانت أم خارجية. كذلك لا يمكن القول إنَّ أوغسطين يعلي من شأن الفكر على حساب اللغة الاصطلاحية، فبالرَّغم من القصور الذي يعتري اللغة وعدم قدرتها على التعبير عن الحقيقة بشكل كامل وواضح، يبقى وجود اللغة أمراً ضرورياً، فلولاها لبقيت الأفكار غير معروفة لانعدام وسيلة التعبير عنها والحفاظ عليها، وتنبع أهمية البحث من قلة الأبحاث التي تتناول موضوع الكلمة الداخلية عند أوغسطين باللغة العربية وقلة الترجمات التي تتعلق بالموضوع ذاته.

**أولاً: العلامة–الكلمة:**

لا يمكن تجاهل العلاقة التي تربط أعمال أوغسطين التي تعالج مسألة اللغة وقضاياها بمسألة الحقيقة وكيفية التعبير عنها، فقد اتخذ أوغسطين مواقف مختلفة إزاء اللغة، منها ما ارتبط بنظرية الدلالة، ومنها ما ارتبط بنظرية التأويل، ففي محاورة المعلم (De magistro) ينتقد أوغسطين اللغة، ويُظهر عجزها على التعلّم والتعليم، ويؤسس لنظرية الإشراق، بينما في كتاب التعليم المسيحي (De doctrina christiana) ينتقل من نقد اللغة إلى ضرورة فهمها من أجل شرعنة نظريته في التأويل، والتأسيس لإمكانية فهم صحيح للكتاب المقدّس.

في محاورة المعلّم (De magistro)، التي يؤسس فيها أوغسطين لنظريته في العلامات والدلالة، يتعلق السؤال الأساسي الذي ينطلق منه أوغسطين في معالجة اللغة بقدرتها على التعلّم والتعليم، وبالطبع هذا يستدعي دراسة اللغة انطلاقاً من اللبنة الأساسية التي تقوم عليها وهي الكلمة، فإذا أراد المرء أن يعلّم أو يتعلّم شيئاً ما، يستخدم إشارات أو علامات تدل على هذه الأشياء، وفيما يتعلق باللغة فإن العلامة التي تُستَخدم هي الكلمة. لكن هل تستطيع الكلمة أن تعلمنا شيئاً عن الموجودات؟ قبل أن نستعرض معالجة أوغسطين لهذه القضية يجب أن نحدد مفهوم العلامة، ومن ثم إبراز العلاقة بين العلامة (signum) والكلمة (verbum).

يعطي أوغسطين تعريفين للعلامة؛ الأول في كتاب الديالكتيك (De dialectica) "العلامة هي شيء لا يُظهر ذاته للإدراك فقط، وإنما يُظهر للعقل شيئاً آخر غير ذاته" (Augustin, 1975, 5). أما التعريف الذي يقدّمه في كتاب التعليم المسيحي (De doctrina christiana) فلا يخرج في معناه عن التعريف الأول "العلامة هي شيء يؤدي إلى إثارة شيء ما في التفكير غير الشكل الذي تظهر عليه خارجياً ويؤثر في الحواس" (Augustinus, 2002, 2.I.1.1). نلاحظ من هذين التعريفين أن العلامة هي شيء مُدرَك حسياً من ناحية، ومن ناحية ثانية تُشير إلى شيء موجود في العقل وتدلُّ عليه. إذاً هناك علاقة تربط بين موجودين مدركين؛ أحدهما حسي، والآخر عقلي.

يميّز أوغســـطين بين نوعين من العلامات؛ العلامات الطبيعية (signa naturalia) التي لا تلعب الإرادة الإنســـانية أي دور في وجودها، وتلعب الخبرة دوراً في فهم ما تدل عليه، فرؤية الدخان تدل على وجود النار (Augustinus, 2002, 2.I.2.2). أما النوع الثاني من العلامات فهو العلامات الاصـــطلاحية (signa data)، وهي العلامات التي يتفق عليها البشـــر حتى يتمكّنوا من إقامة التواصـل فيما بينهم، ويلعب كلٌ من القصـد والإرادة والغاية دوراً في إيجادها، وهي تضـم العلامات اللغوية (الكلمات)، والإشـارات الجسدية (الإيماءات وحركات الجسد التعبيرية) (Augustinus, 2002, 2.II.3.3)، إلا أن اللغة تمتلك بين البشر السلطة الأعلى في عملية الدلالة، وبخاصّـــةٍ عندما يريد المرء أن يُعبّر عن الأفكار التي تتكون في عقله وتتشـــكّل فيه (Augustinus, 2002, 2.III.4.6)، وعلى هذا الأســاس يعرّف أوغســطين الكلمة على أنها "علامة لشــيء محدد، يمكن أن يفهمها المســتمع، ويجب أن يلفظها المتحدّث" (Augustin, 1975, 5)؛ لذا يعدّ أوغســـطين الكلمات علامات تدل على الأشـــياء، والغاية منها تحقيق وظيفة تواصلية تعتمد على المتحدّث والمتلقي.

لكن هذا التحديد للكلمة على أنها تدل على شيء ما يسقط عندما يتطرق أوغسطين في محاورة المعلم إلى دلالة كلمة عدم (nihil)، فهذه الكلمة لا تدل على شـيء مادي أو شـيء يمكن إدراكه من خلال الحواس، وإنما تدل على شـيء يمكن إدراكه من خلال العقل، فالعدم يعني "لا شـيء" (حنفي، ١٩٨١، ٣٩)، ويمكن فهمه من خلال مفاهيم مثل "عدم الحضـور" أو "الغياب"، والسؤال عن دلالة كلمة "العدم" (nihil) هو سؤال معنى وليس سؤال دلالة فقط، ومثل هذه الكلمات لا تُشير إلى شيء موجود في هذا العالم، وإنما إلى شـيء موجود في الوعي؛ أي هي أشـياء ليسـت مرئية أو محسـوسـة، وإنما أشـياء تُدرَك من خلال الأثر الذي تتركه على العقل (affection animi) (Schulthess, 2002, 50).

بالعودة إلى سؤالنا حول قدرة الكلمة على تعليمنا شيئاً عن الموجودات يثير أوغسطين قضية مهمة في محاورة المعلم تتعلق بالعلاقة بين الشي والكلمة التي تدل عليه، هذه القضـية ترتبط بشـكل أسـاسـي بمعرفة الحقيقة، فحتى يتمكن المرء من معرفة الكلمة لا بدَّ له من معرفة الشـيء الذي تدل عليه، حيث تُعدُّ معرفة الشـيء أسبق من معرفة الكلمة، وتُعدُّ هذه المعرفة أيضـاً (معرفة الشـيء) شرطاً أساسيّاً من أجل إتمام إمكانية التواصل بين الأشخاص وإنجازها، فالحديث لا يمكن أن يحقق الغاية المرجوة منه دون معرفة مسبقة بالأشـياء، وتعتمد هذه المعرفة على الخبرة الحسـية بشـكل أسـاسـي، فالكلام هو تذكّر واسـترجاع شـيء معروف مسبقاً وموجود في العقل، ويهدف إلى إظهار شـيء ما يُعدُّ هو (الكلام) إشـارة له ويدلُّ عليه، ويبيّن أوغسـطين أن الحديث يتكوّن من كلمات مترابطة مع بعضـــها البعض، وهذا التحديد يتضـــمن جانبين؛ الأول شـــكليّ يوضـــح أن الحديث يتكوّن من كلمات ترتبط وتنتظم فيما بينها لتشـــكّل ســـياقاً لغوياً محدداً، أما الجانب الثاني فهو دلاليّ تظهر فيه الكلمات المفردة على أنها حاملة للمعاني لتكوّن ســـياقاً دلالياً معيناً، وحتى يحقق الخطاب أو الحديث الغاية المرجوة منه لا بدَّ من تضـافر السـياقين –الشـكليّ والدلاليّ– واندماجهما في سـياق واحد يخدم موضـــوع الخطاب، وهذا النوع من الحديث يشـــكّل الحالة العامة التي تتألف من كلمات مســـموعة، إلا أنه هناك حالة خاصـة تتعلق بحديث النفس الصـامت مع ذاتها، وهو ما يطلق عليه أوغسـطين اسـم "الحديث القلبي" (locutio cordis)، وأسـاسـه الكلمة الداخلية (verbum intimum)، وهي كلمة لا وقع لها يطرق الآذان، وتشـــكّل الأســـاس الذي يقوم عليه الحديث المســـموع "هناك كلمة أيضـاً في الإنسـان ذاته تبقى في الداخل فقط، ما يخرج من الفم هو الصـوت فقط، هناك كلمة حقيقية يتم الحديث بها عقلياً. كل كلمة يتم استخلاصها من اللفظ هي ليست اللفظ ذاته" (Augustinus, 1913, 8).

لا بدَّ من الإشـــارة إلى أن ما يتم معرفته عندما ينطق المرء بكلمة ما أو يفهمها هو معناها، فالمعنى هو قوة الكلمة (vis verbi) الذي يكمن في لفظها (Borsche, T., 1986, 141)، ومن خلاله نسـتطيع الدلالة على الأشـياء[1]، وهكذا يغدو المعنى هو الأسـاس في فهم الكلمة التي تبدو وكأنها تحمل وجهين: الأول مادي (الصـوت) والثاني دلالي -كما بيّنا سـابقاً- والرابط بينهما هو المعنى، لكن ما هو المعنى الذي يمنح الكلمة قوتها؟ ليس الشـيء ذاته الذي تتم الدلالة عليه من خلال العلامة-الكلمة هو المعنى الذي يمنح الكلمة قوتها، وإنما العلم بالشـيء كما هو، أي معرفة الشـيء الذي تتم الدلالة عليه، وهذه المعرفة أو العلم هو الذي يسـاهم في نشوء الكلمة الداخلية كما سـوف نرى، والكلمة الداخلية هي المعنى الكامن في الكلمة، وهي من يمنح الكلمة قوتها، ويجعل دلالتها حقيقية وصـحيحة. هنا تبدو الكلمات وكأنها وعاء يحمل في داخله المعاني ويُسهمُ في عرض العلم والإخبار عنه[2] (Borsche, T., 1986, 146).

**ثانياً: نشوء الكلمة الداخلية:**

يعالج أوغسـطين في الكتاب الخامس عشـر من مؤلفه (De trinitate) قضـية أسـاسـية تتعلق بالمخزون المعرفي الذي يحصّـله الإنسـان ويشـكّل البنية المعرفية للذاكرة، حيث نُعدُّ هذه القضـية الأسـاس الذي يعتمد عليه في معالجته لموضـوع الكلمة الداخلية وكيفية نشوئها.

يطلق أوغسـطين مسـمى التفكير (cogitare) على عملية اسـتحضـار تفاصـيل ومواضـيع محددة تم إدراكها مسـبقاً، ويعدّه الحركة الداخلية للعقل. هنا يحدد أوغسـطين التفكير على أنه اسـتحضـار للمعرفة الموجودة في العقل وليس إيجاد معرفة جديدة، والمقصـود هنا بالمعرفة الموجودة مسبقاً في العقل هو ما تم إدراكه ومعالجته معرفياً في وقت سابق وتخزينه في الذاكرة[3].

إن عملية التفكير التي تحدث في العقل وتولّد الأفكار ما هي إلا تعبير عن المعرفة التي حصّـلها الإنسـان مسـبقاً، وهي ما يُطلق عليه أوغسـطين اسـم "الحديث القلبي" (locutio cordis)، وهو ضـرب من الحديث يحدث داخل العقل، مكوناته هي الأفكار التي يُطلق عليها أوغسطين اسم الكلمة الداخلية (verbum intimum) "في الحقيقة عندما نريد أن نعبّر عنها [أي المعرفة]، فإننا بالتأكيد لا نسـتطيع ذلك إلا عندما نفكر فيها، وحتى عندما لا تصـدح أية كلمات، فإن الذي يفكر يتحدّث في قلبه" (Augustinus, 2001, XV. 10.17)، ولذا فإن الكلمة الداخلية -التي هي قوام الحديث القلبي- هي كلمة غير منطوقة تتشـكّل في العقل، وتبقى فيه غير معروفة للآخرين حتى يتم التلفّظ بالكلمات المنطوقة التي تدل على الكلمة الداخلية، لذلك فإن عملية الإخبار والإبلاغ عن الكلمة الداخلية يتم من خلال الكلمات المنطوقة، حيث تجد الأفكار في هذه الحالة طريقها إلى الخارج بعد أن كانت حديثاً قلبياً. هنا تأخذ الأفكار شكلاً جديداً، حيث تتجلى الكلمة الداخلية في اللغة.

---

[1]- هذا ما يميّز العلامة الاصطلاحية عن العلامة الطبيعية التي تعتمد على العلاقة بين شيئين مدركين حسياً، فالدخان يشير إلى وجود النار على سبيل المثال.

[2]- يعتبر أوغسطين المعنى روح الكلمة، وفقدان الكلمة لمعناها يشبه خروج الروح من الجسد "عندما يخسر اللفظ معناه من خلال تجزئته إلى حروف، ألا تعتبر ذلك وكأنه عملية أُخرى مثل نزع الروح من الجسد الممزق، وهذا يؤدي إن صح التعبير إلى موت الكلمة" **(Augustinus, 1960, XXXII.66)**.

[3] يعارض أوغسطين فكرة أفلاطون التي ترى أن المعرفة تذكّر؛ أي وجود معرفة فطرية لدى الإنسان حصّلها في حياة سابقة، والنفس تتذكر هذه المعرفة في حال تم استثارتها، ويستثني أوغسطين المعرفة التي تتعلق بالحقائق الميتافيزيقية التي ليس لها أي أساس حسي مُدرَك، أو تم تجريدها من المعرفة الحسية، فهذه المعرفة تتلقاها النفس من الحقيقة الخالدة، وضامن صدقها هو المعلم الداخلي، أما معرفة العالم الحسي فتشترط الاتصال بالأشياء حتى يكوّن الإنسان معرفة عنها. للمزيد انظر: **Augustinus, Retractationes, I.4.4; I.8.2**

لا بدَّ من الإشارة إلى أن أوغسطين لا يطلق على التعبير الصوتي عن الفكرة (الكلمة المنطوقة) تسمية "الكلمة"، وإنما يطلق هذه التسمية على الفكرة ذاتها، فالحديث القلبي (locutio cordis) المتكوّن من الأفكار هو الذي يُطلَقُ عليه "كلمة"، في حين إنّ الكلمات المنطوقة ما هي إلا "علامة" أو "إشارة" تدل على الكلمة الداخلية، وهي في الوقت ذاته صوتها أو نغمتها، والمرء يستخدم هذه العلامات المادية من أجل الإفصاح عن أفكاره وإيصالها إلى الآخرين (Brachtendorf, 2000, 265)، وبناءً على ذلك تغدو العلامة المنطوقة (signum verbi) تجلياً للكلمة الداخلية "إذاً فإن الكلمة التي تُسمع في الخارج هي علامة الكلمة التي تضيء في الداخل، والتي تستحق بحق اسم الكلمة، لذا فإن الذي يخرج من الفم هو نغمة الكلمة، وهي تسمى أيضاً كلمة بسبب تلك الكلمة التي وُجِدَت من أجلها حتى يمكن لها أن تظهر خارجياً" (Augustinus, 2001, XV. 11.20)، حيث تغدو العلامة المادية الاصطلاحية تمظهراً للواقعة العقلية المتمثلة بالفكرة (الكلمة الداخلية)، فالكلمة الداخلية لا تتبع لغة محددة، وهي خارج نطاق اللغة (Augustinus, 2001, XV. 10.19)، إلا أنها تتحدد لغوياً من خلال الكلمة المنطوقة التي تشكّل اللبوس الذي تلبسه الكلمة الداخلية حتى تصبح معروفة وعلنية، فاللغة هي ترجمة الأفكار في كلمات (علامات) والأشياء في أسماء والصور في علامات وحروف، والكلمة الداخلية هي تلك الكلمة التي تمنح العلامات معناها.

بالرَّغم من أن الكلمة الداخلية لا تعوزها الكلمات المنطوقة التي تصدح في الخارج، وتأخذ شكلاً مادياً يطرق الأذن حتى يتمكن المرء من معرفتها، إلا أنها لا يمكن أن تتخلى عن العلامات الاصطلاحية ذات الدلالة نهائياً، وتُعدّ الكلمة الداخلية فكرة تتحول فيما بعد إلى كلمة خارجية، وحتى عملية التفكير لا يمكن أن تتم من غير كلمات، لذا فإن الكلمة الداخلية هي كلمة تصدح في الداخل، وهي وليدة العقل والذاكرة، وتكمن وراء كل فعل أو سلوك أو قول، إنها أساس السلوك الإنساني ومعياره، لذلك فإن العلاقة جدلية بين الكلمة الخارجية (العلامة) والكلمة الداخلية؛ فالكلمة الخارجية الاصطلاحية المتواضع عليها ضرورية من أجل إقامة التواصل بين البشر، وكذلك ضرورية من أجل التعبير عمّا يجول في فكر المتحدّث، ولولا الكلمة المنطوقة لما تمكّن المرء من التعبير عن أفكاره، ولما أصبحت الكلمة الداخلية معروفة، ويمكن القول إنّ اللغة (منطوقة ومكتوبة) وُضِعَتْ بالأساس للتعبير عن الكلمة الداخلية؛ أي من أجل أن تتمكن الكلمة الداخلية من الانتقال من حيز الإمكان إلى حيز التحقق الفعلي، وبذلك لا تمتلك الكلمة الداخلية هنا أسبقية أنطولوجية وزمنية فقط، وإنما أيضاً أسبقية منطقية.

يجب الانتباه إلى أن أوغسطين لم يحصر التعبير عن الكلمة الداخلية فقط بالعلامات المنطوقة (الكلمات الخارجية)، وإنما هناك أيضاً الإشارات الجسدية الحركية التي تأخذ شكل الإيماءات الجسدية التي يتم استخدامها في عملية التواصل مع الآخرين الموجودين أمامنا ونتواصل معهم بشكل مباشر، والعلامات أو الإشارات المكتوبة التي تتمثل باللغة المدونة التي تم إيجادها من أجل الاحتفاظ بالمخزون الفكري والمعرفي، وكذلك من أجل التواصل مع الأشخاص غير الموجودين أمامنا مباشرة (Augustinus, 2001, IX.7.12). هنا يضعنا أوغسطين أمام مستويين من الخطاب، خطاب داخلي قوامه الأفكار وتلعب فيه الخبرة الحسية دوراً مهماً، وخطاب خارجي يمثّل تجلياً وظهوراً للخطاب الداخلي، له دور تعبيري تواصلي وتحفيزي، فكما أن الكلمة الداخلية نشأت عن العلم والمعرفة، كذلك فإن الكلمة المنطوقة وُجِدَت من أجل الكلمة الداخلية، وفي كلتا الحالتين نلاحظ وجود أسبقية أنطولوجية للأشياء

ومعرفتها على اللغة[٤]. هذه القضية أثارها أوغسطين في محاورة المعلّم (De magistro) بشكل واضح في محاولة منه لشرح كيفية نشوء اللغة والدور الذي تقوم به من أجل الوصول إلى الحقيقة، ووصل إلى نتيجة تفيد بأن اللغة قاصرة عن التعبير عن الحقيقة، والوصول إلى الحقيقة يكون من خلال الاتصال المباشر بالأشياء، والمعيار هو المعلم الداخلي الموجود في النفس الذي يشرق فيها لتتمكّن من رؤية الحقيقة، فالمعرفة عند أوغسطين إشراقية، والكلمة الداخلية أسبق في النشوء من الكلمة الخارجية المنطوقة، وتنشأ عن طريق الاتصال المباشر بالأشياء والمعرفة التي تتكون منه.

**ثالثاً: معيار صدق الكلمة الداخلية:**

نلاحظ أن العلم والمعرفة –كما بيّن أوغسطين– يشكّلان مرجعية الكلمة الداخلية، وهما دائماً صحيحان، فالصحيح هو فقط الذي يمكن أن يُعرَف، وفي حال حصّل المرء معرفة غير صحيحة عن شيء ما فإن هذه المعرفة صحيحة؛ لأن معرفة الخطأ تُعَدُّ معرفة صحيحة "بالتأكيد فإن كل ذلك [أي علوم الإنسان] صحيح، وإلا فإنه لن يكون معروفاً. لا أحد لديه أية معرفة بالخطأ، إلا إذا عرف أنه خطأ، وإذا عرف ذلك فإن ما يعرفه حقيقي" (Augustinus, 2001, IX.10.17). هنا يبيّن أوغسطين أن المعرفة التي يحصّلها المرء عن الأشياء هي معرفة صحيحة –حتى لو كانت خاطئة– لأنها تطابق الشيء وحالته الوجودية في اللحظة التي تتم معرفته فيها، وفي حال أدرك المرء أن المعرفة التي حصّلها غير صحيحة، فإن معرفته بخطأ المعرفة السابقة هي أيضاً معرفة صحيحة. إن الغاية التي يرمي إليها أوغسطين هنا هي إعطاء المرجعية التي يعتمد عليها نشوء الكلمة الداخلية صفة الصدق –أي إنّ الكلمة الداخلية تنشأ عن علم ومعرفة صادقين– حتى يتمكّن من تحديد معيار صدق الكلمة الداخلية، حيث يرى أن صدق الكلمة الداخلية أو كذبها يتحدد من خلال علاقتها بالعلم الذي نشأت عنه، يكون دائماً صادقاً. ضمن هذا السياق يتحدّث أوغسطين عن مبدأ التطابق بين العلم والكلمة الداخلية، فحتى تكون الكلمة صادقة يجب أن يكون ما هو موجود في العلم موجوداً في الكلمة، وما لا يكون في العلم لا يكون في الكلمة.

إن مبدأ التطابق هو المعيار الذي يطبقه أوغسطين في الحكم على صدق الكلمة، فحتى تكون الكلمة الخارجية صادقة يجب أن تكون مطابقة للفكرة (cogitation) أو بالأحرى مطابقة للكلمة الداخلية، وحتى تكون الكلمة الداخلية صادقة يجب أن تكون مطابقة للمعرفة (notitia) التي نشأت عنها، فعندما يتطابق مضمون الكلمة الداخلية (verbum intimum) مع المعرفة تكون الكلمة صادقة، أما إذا لم يتطابق تكون غير صادقة، وبناءً على ذلك يطبق أوغسطين مقولة "نعم–نعم، لا–لا" على العلاقة بين العلم والكلمة الداخلية[٥]، فنعم في العلم توافق "نعم" في الكلمة، و"لا" في العلم توافق "لا" في الكلمة، والكلمة التي لا ينطبق عليه هذا المعيار هي كلمة غير صحيحة (Brachtendorf, 2000, 266).

إن مناقشة أوغسطين لمفهوم التطابق يثير إشكالية ذات شقين: الشق الأول يتعلق بإشكالية مطابقة الكلمة للعلم الموجود في العقل، فالكلمة الداخلية الصحيحة هي تلك التي تطابق العلم المخزّن في الذاكرة، لذا فإنّ كل ما ينشأ في العقل ولا يحقق هذا الشرط لا يمكن أن يُطلق عليه كلمة. الشق الثاني يتعلق بإمكانية الحديث عن كلمة داخلية كاذبة أو غير صحيحة، فطالما أن العلم الموجود

---

[٤]– يُشير أوغسطين إلى هذه المسألة في كتابه "الاعترافات"" عند حديثه عن الذاكرة، حيث يبيّن أن الأشياء ومعرفتها لها دور مهم في نشوء اللغة، كما أنها تشكّل الأساس في قيام إمكانية التواصل والحديث، فلو لم تكن صور الأشياء لدينا لما تمكّنا من معرفة الألفاظ والكلمات التي تدل عليها، ولما استطعنا أيضاً التكلم عن هذه الأشياء. انظر: أوغسطين، الاعترافات، ص٢٠٧–٢٠٨.

[٥]– في هذه المسألة يعتمد أوغسطين على إنجيل متى ٥. ٣٧ «فليكن كلامكم "نعم" أو "لا"»

في الذاكرة صحيح دائماً وعنه تنشأ الكلمة الداخلية، فإن الحديث عن كلمة داخلية غير صحيحة أمر غير وارد وغير ممكن، ممّا يؤدي إلى أن الكلمة الداخلية صادقة دائماً. حتى يتمكّن أوغسطين من حل هذه الإشكالية يلجأ إلى التمييز بين الكذب والخطأ بناءً على معيار التوافق أو التطابق ذاته.

ضمن هذا السياق يقيم أوغسطين بدايةً مقارنة بين الكلمة الإلهية والكلمة الإنسانية الداخلية؛ حيث يرى أن الآب يُفصح عن ذاته في الابن الذي يُعدُّ كلمته، وهذه الكلمة صادقة بالضرورة وطابعها عدم التبدل والتغيّر مثل العلم الذي نشأت عنه (Augustinus, 2001, XV.14.23)، والابن غير مستقل عن الآب في عمله[٦]، ويبيّن أوغسطين وجود نوع من المطابقة أو التشابه بين الخلق الإلهي والعمل الإنساني، فأي عمل إنساني تسبقه كلمة داخلية تتجلى فيه لاحقاً، وكما هو الحال بالنسبة للخلق الذي يتم من خلال الكلمة فإن الأعمال الإنسانية قد تم الحديث عنها قلبياً، لقد كانت حديثاً داخلياً "كما قيل عن هذه الكلمة [الكلمة الإلهية] «به كان كل شيء» (يوحنا ١. ٣)، لأن الله وفقاً لديننا قد خلق الكون كله من خلال كلمته، كذلك لا يوجد عمل إنساني لم يتم الحديث به مسبقاً في القلب. لهذا فقد كتب «إن بداية كل عمل هو الكلمة»" (Augustinus, 2001, XV.11.20). بناءً على هذا الفهم الذي قدّمه أوغسطين للعمل الإنساني على أنه مؤسس داخلياً ومرجعيته كلمة داخلية أو حديث قلبي، وبالعودة إلى مبدأ التطابق الذي تحدّث عنه أوغسطين "نعم–نعم، لا–لا" الذي ترتب عليه أن الكلمة الداخلية صادقة بالضرورة، نصل إلى نتيجة مفادها أن الكذب فعل قصدي يتمثل في غياب التطابق بين أقوال المتحدّث وأفكاره، فكما أسلفنا إن الكلمات المنطوقة هي اللبوس الذي ترتديه الكلمة الداخلية لتُعبّر عن ذاتها، والكاذب يدرك أن الكلمات التي يستخدمها في التعبير عن فكرة يريد الإدلاء بها تناقض الفكرة الحقيقية الموجودة لديه التي لم يُعبّر عنها. إن الكذب كفعل قصدي لا ينحصر فقط في عدم التطابق بين الكلمة الخارجية والفكرة، وإنما بين الفكرة التي تم التعبير عنها والفكرة المسكوت عنها(Brachtendorf, 2000, 269).

بناءً على ذلك فإن نشوء كلمة داخلية كاذبة أمر غير ممكن، فعندما يكمن صدق الكلمة الداخلية في انطباقها وتوافقها مع العلم الموجود في الذاكرة، فإنها سوف تكون دائماً صادقة. ضمن هذا السياق يناقش أوغسطين مسألة مهمة تتعلق بخطأ الكلمة الداخلية، فالكلمة الداخلية صادقة من ناحية انطباقها مع العلم الذي نشأت عنه، إلا أنها ليس بالضرورة أن تكون صحيحة، أو أن يكون الفعل الناشئ. هنا يُرجع أوغسطين قضية خطأ الكلمة الداخلية إلى خطأ العلم الذي تنشأ عنه، فالكلمة الداخلية صادقة من حيث انطباقها مع العلم، وخاطئة من حيث إنَّ العلم الذي نشأت عنه وتطابقه غير صحيح، وهذا يحيلنا بدوره إلى التساؤل عن مصادر المعرفة الإنسانية وطبيعتها.

**رابعاً: مصادر المعرفة الإنسانية:**

إن معيار صدق الكلمة الداخلية الذي حصره أوغسطين بمطابقة الكلمة مع العلم المخزون في الذاكرة يجعل منها دائماً صحيحة، ولا يُرجع الخطأ إلى مسألة التطابق بين العلم والكلمة، وإنما يُرجعه في الحقيقة إلى العلم ذاته الذي يكون في حالة الخطأ غير صحيح؛ أي إنّ الكلمة الداخلية الخاطئة تطابق بالأساس علماً خاطئاً وغير صحيح، وهذا يُثير سؤالاً حول وثوقية العلم الذي يحصّله الإنسان ونجاعة الطرق التي يتبعها في تحصيله.

---

[٦] في هذه النقطة يعتمد أوغسطين على إنجيل يوحنا ٥. ١٩ «لا يقدر الابن أن يعمل شيئاً من عنده، بل يعمل ما رأى الآب يعمله، فما يعمله الآب يعمل مثله الابن»

لقد عالج أوغسطين هذه القضية بدايةً في كتاباته المبكرة التي تنتقد نزعة الشك الأكاديمية التي تدّعي عدم إمكانية الوصول إلى معرفة يقينية ثابتة[٧]، ولكي يكون نشـوء كلمة داخلية صـحيحة متاحاً لا بدَّ من البرهنة على أن العلم ممكن، وأن إمكانية الوصـول إلى علم يقيني أمر ممكن، حيث يبيّن وجود مصدرين للمعرفة؛ الأول يقوم على نوعين من الإدراك يلعبان دوراً مهماً في تكوين منظومة المعرفة لدينا ويحددانها ليصبح لدينا ضربان من المعرفة: معرفة حسية تأتينا من خلال الإدراك عن طريق حواس الجسد، ومعرفة تصل إليها النفس من خلال ذاتها. أما المصدر الثاني للمعرفة فيُطلق عليه أوغسطين "شهادات الآخرين" (Augustinus, 2001, XV.12.22).

فيما يتعلق بالإدراك الحسـي فقد كانت المعرفة التي تأتينا عن طريق الحواس موضـع شـك بشـكل دائم، كما كانت موضـع انتقاد الفلاسفة، وقد اعتمد عليها أصحاب نزعة الشك كذريعة تؤكد عدم إمكانية الحصول على معرفة ثابتة، إلا أن أوغسطين يقف موقفاً مزدوجاً من المعرفة الحسية، فمن ناحية أولى ينتقدها، ويبيّن أن المعرفة الحسية ليست معرفة يقينية ثابتة، فقد تبدو لنا الأشياء على غير ما هي في الحقيقة، فعلى سبيل المثال يمكن للعين أن ترى المجداف مكسوراً في الماء، لكنه في الحقيقة غير ذلك. من ناحية ثانية فإن الشك المطلق بالإدراك الحسي وما تنقله الحواس يُعتبَرُ مستحيلاً، لأن الحواس هي نافذتنا على العالم، ومن خلالها نُدرك وجود الموجودات الحسية، ونعرف أيضـاً أنها موجودة (Augustinus, 2001, XV.12.21)، ولذلك لا يمكن الاستغناء عن المعرفة الحسية، وتظهر الحاجة هنا إلى معيار نحتكم إليه للإقرار بيقينية المعرفة الحسية، والمعيار هنا هو العقل، فالحاسة تُدرك فقط، أي إنها تؤدي وظيفتها في تلقي التأثيرات الخارجية أو نقل المعلومات عن العالم الخارجي، ولا تحكم على ما تنقله، في حين إنّ العقل هو الذي يحكم على ما تدركه الحواس، وهو الذي يحدد صدقه أو كذبه (Augustinus, 1983, XXIX.53.145-146)[٨].

فيما يتعلق بمعرفة النفس لذاتها يؤكد أوغسـطين أنها معرفة يقينية لا يمكن الشـك فيها أبداً، ويقدّم على ذلك أدلة تتمحور كلّها حول إدراك النفس لوجودها وحضـورها في الأفعال كافة التي تقوم بها ويقينها بمعرفتها بالأفعال التي تقوم بها، ويمكن للأنا الإنسـانية أن تشك بوجود كل شيء باستثناء ذاتها التي تقوم بفعل الشك (Augustinus, 2001, XV.12.21).

المصـدر الثاني للمعرفة هو "شـهادات الآخرين" ويقصـد بها أوغسـطين العلوم التي حصّـلها الآخرون من خلال معاينتهم للأشـياء وملاحظتها، وقد انتقلت هذه العلوم إلينا عن طريق اللغة، وأصبح الاطلاع عليها متاحاً لنا. وهكذا تُسهمُ الإدراكات الحسية للآخرين ومعاينتهم للأشـياء في بناء معرفتنا وتضـيف إليها الكثير. لكن السـؤال هنا: هل يمكن اعتبار مصـادر العلم هذه معصـومة عن الخطأ؟ في الحقيقة فقط معرفة النفس لذاتها أو ما يمكن أن نسميّه اليقين الذاتي بالوجود هو الوحيد المعصوم عن الخطأ، فلا يمكن للنفس ألا تتيقن من وجودها. إلا أن أوغسـطين –حتى يمنح الثبات للعلم الذي تنشـأ منه الكلمة الداخلية– يرى أن الحقائق العقلية معصـومة أيضـاً عن الخطأ، أي ما يتيقن العقل من ثباته ويصـيغه في شـكل حقائق تأخذ شـكل قضـايا تعتمد عليها اسـتنتاجاته، وعصـمة هذه الحقائق العقلية نجده في الإشـراق الإلهي الذي أسـس له أوغسـطين[٩]، حيث يرى أن النفس تُدرِك حقائق الأشـياء من خلال الاتصـال المباشـر بها، والضـامن لهذه الحقائق هو المعلّم الداخلي الذي يشـرق في النفس لتتمكّن من إدراك هذه الحقائق

---

[٧]– عالج أوغسطين هذه المسألة في عمله المبكّر "الرد على الأكاديميين" (**contra academicos**) الذي ألفه عام ٣٨٦، حيث يوافق الشكاك أن المعرفة الحسية لا يمكن أن تُنتج علماً يقينياً، إلا أنها تُسهم في بناء البنية المعرفية للإنسان، ويؤكد على وجود حقائق يقينية لا يتطرق الشك إليها وتشكّل القوام الحقيقي للعلم اليقيني.

[٨]– للمزيد حول هذا الموضوع انظر: كوبلستون، تاريخ الفلسفة (من أوغسطين إلى دانز سكوت) "المجلد الثاني، القسم الأول"، ص ٨٣–٨٥.

[٩]– إن مفهوم عصمة العلوم وثباتها يُعدُّ الركيزة الأساسية التي قامت عليها نظرية الإشراق عند بونافنتورا، فالعلم الإنساني المتبدل تبعاً لتغيّر الذات المُدّركة أو تبدل موضوع الإدراك يجعل منه عرضة للشك؛ لذا لا بدَّ من وجود مرجع ثابت للعلم، وهو في هذه الحالة الله الذي يشرق نوره على العقل الإنساني. انظر: مراد، ياسر (٢٠٢٢). نظرية الإشراق عند بونافنتورا، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، ٣٨(٤): ص١٣٢–١٣٣.

(حنفي، ١٩٨١، ٩١؛ ٩٨)، كما أن الإشــراق الإلهي يعطي الأحكام صــفة الكلية ويؤســس لها من خلال وجود معايير ثابتة في العقل الإنساني[١٠] (وماركوس، ١٩٩٧، ٤٩).

بالرَّغم من الثبات النسبي –إن صح التعبير– في العلم الذي تنشأ عنه الكلمة الداخلية يبقى العلم الإنساني متبدلاً متغيراً من ناحية، ومن ناحية ثانية يبقى الإنسان غير قادر على العلوم ومعاينة الموجودات كلّها وحده. بناءً على ذلك يتساءل أوغسطين بكل وضوح "هل تنشأ كلماتنا فقط من علمنا؟ ألا نقول الكثير ممّا لا نعلم؟" (Augustinus, 2001, XV.15.24)[١١]. ضمن هذا السياق يتطرق أوغسطين إلى مسألتي الكذب والخطأ، ويرى أن الكذب ليس السبب في نشوء كلمة داخلية غير صحيحة أو غير صادقة، وإنما الخطأ هو الصيغة الوحيدة الحقيقية لعدم صدق الكلمة الداخلية، ولو عدنا إلى قول أوغسطين السابق عن أننا نقول الكثير مما لا نعلم، نراه يردفه بأننا نقول ذلك ونحن لا نشك فيه، نصرّح به على اعتبار أنه صحيح، وفي حال كان القول صحيحاً أو صادقاً، فإن صدقه لا يكمن في الكلمات وإنما في الأشياء التي تتحدّث عنها؛ لأن الكلمة الصادقة تنشأ عن الشيء المعروف (Augustinus, 2001, XV.15.25). وهكذا فإن صدق الكلمة الداخلية لا يتحدد من الافتراض أنها صحيحة أو صادقة، وإنما يتحدد صدقها من خلال معرفة الشيء الذي تعبّر عنه ومدى تطابقها مع هذه المعرفة. هنا –من جديد– تظهر الأسبقية الأنطولوجية للأشياء على نشوء أية لغة، داخلية كانت أم خارجية، منطوقة أو مكتوبة، ويغدو معيار الصدق هنا مزدوجاً. أولاً حتى تكون المعرفة صحيحة يجب أن تطابق الشيء المعروف وتعبّر عنه كما هو في الحقيقة. ثانياً حتى تكون الكلمة صحيحة يجب أن تطابق المعرفة الصحيحة، لذا فإن الحديث عن حقيقة الأشياء يتطلب بالضرورة التوافق بين الشيء ومعرفته، والتناقض والاختلاف بين الشيء والمعرفة المتعلقة به هو سبب عدم صدق الكلمة الداخلية.

وهكذا فإن سبب خطأ الكلمة الداخلية هو خطأ في المعرفة أو العلم، وتُعدُّ الأفكار خاطئة ليس لأنها تتعارض مع المعرفة الصحيحة، وإنما لأنها تتطابق مع معرفة خاطئة. وهنا لا بدَّ من التأكيد على قضية أساسية وهي أن التطابق أو عدم التطابق بين الفكرة والعلم الذي تنشأ عنه ليس من يحدد أو يجزم بصواب الكلمة الداخلية أو خطئها، وإنما من يحدد ذلك علاقة العلم مع الواقع، أي مدى تطابق علمنا ومعرفتنا مع الأشياء التي نتحدّث عنها. بناءً على ما تقدّم وبالاعتماد على مبدأ التطابق فإن الكلمة الداخلية صادقة دائماً وصحيحة، وهي تسبق كل عمل أو فعل. هذا دفع أوغسطين إلى عقد مقارنة بين الكلمة الداخلية عند الإنسان والكلمة الإلهية معتمداً على مبدأ التطابق الذي يُعدُّ معيار صدق الكلمة الداخلية.

**خامساً: الكلمة الإلهية والكلمة الإنسانية الداخلية:**

يعقد أوغسطين مقارنةً بين كلٍّ من الكلمة الإلهية والكلمة الإنسانية مبيّناً أوجه التشابه والاختلاف بينهما، وحتى تتوضح هذه المقارنة يعتمد على نصوص من الكتاب المقدّس، وبشكل خاص على إنجيل يوحنا، حيث يبيّن بدايةً أن الله قد أوجد العالم من خلال كلمته، لذا فإن فعل الخلق مسبوق بكلمة إلهية وجدت تمظهرها في هذا الفعل وكذلك في الجسد الذي تجلّت فيه، والشيء ذاته

---

[١٠]– يرى أوغسطين وجود مجموعة من الحقائق المعصومة عن الخطأ ولا يمكن للشك أن يتطرق إليه وهي: القواعد الرياضية والمنطقية، المعايير الأخلاقية والجمالية التي تمكّن الإنسان من الحكم الصحيح على الأشياء، والأنا الحاضرة في الأفعال الإنسانية كلّها. للمزيد انظر:

**Augustinus, Contra academicos III.13.29; De trinitate XV.12.21; De beata vita II.7; De ordina II.15.42, III.13.25.**

[١١]– يقصد أوغسطين بقوله هذا أننا نقول الكثير عن أشياء لا نعاينها ولا ندركها بشكل مباشر، وإنما أتتنا من معاينات الآخرين ومشاهداتهم، ونحن نتحدّث عنها وتتولّد منها كلمة داخلية لدينا وكأن هذه المعرفة أو هذا العلم صحيح، وفي حال نشأت كلمة داخلية غير صحيحة، فإن ذلك بسبب المعرفة غير الصحيحة الموجودة لدينا.

ينطبق على الفعل الإنساني، فأي فعل إنساني لا يمكن أن يحدث أو أن يتم ما لم يكن مسبوقاً بكلمة، وهذه الكلمة تحدد في الواقع الكيفية التي سوف يكون عليها هذا الفعل، ولا بدَّ من الانتباه هنا إلى أن العلاقة بين الفعل والكلمة هي علاقة لزوم من حيث إنّ الفعل لا بدَّ أن يكون مسبوقاً بالكلمة، إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون هنالك فعل ينتج عن الكلمة، فقد يكون لدى الإنسان كلمة داخلية من دون أن يتبعها فعل محدد.

طالما أنه لا يوجد فعل –أياً كان– غير مسبوق بكلمة تحدده، إن كان على المستوى الإلهي أو على المستوى الإنساني، فأين يكمن الفرق بين كلمة الإنسان الداخلية والكلمة الإلهية (verbum divinum)؟ لا يكمن الفارق بينهما في أيهما أقرب للحقيقة أو الصدق، فهما مطابقتان للعلم الذي نشأتا عنه، وإنما يكمن في الأساس الذي تكوّنتا منه، أي في العلم ذاته. هنا يميّز أوغسطين بين العلم الإنساني الذي نشأت عنه الكلمة الإنسانية الداخلية والعلم الإلهي الذي نشأت عنه كلمة الله، فالعلم الإنساني علم مكتسب متبدل متغير تبعاً لتغيّر موضوعه واختلاف حالات ظهوره، كما أنه علم قابل لأن يُنسى، وهذا يعني أنه ليس حاضراً بشكل دائم، ممّا يؤدي إلى نشوء فعل غير مكتمل نتيجة لنقص المعرفة أو نسيانها. ضمن هذا السياق يبيّن أوغسطين قضية مهمة تتعلق بتمايز الوجود والعلم في العقل الإنساني، أي إنّ العلم ليس ذاته الوجود، حيث يمكن للعلم أن يختفي من الذاكرة من دون أن يهدد هذا الأمر وجودنا، فهناك فارق بين "أن نعلم" و"أن نوجد"، فنحن نوجد إن كان العلم لدينا أم لا (Augustinus, 2001, XV.13.22;15.24)، في حين إنّ علم الله مطابق لوجوده ويشكّلان كلاهما ماهيته، فلا يمكن الفصل بين علم الله ووجوده، فعلم الله هو عين ذاته وعين ماهيته[١٢]. بالإضافة إلى ذلك فإن علم الله غير مكتسب، فهو علة وجود الموجودات وليس معلولاً لها "المخلوقات كافة، العقلية والجسمية، لا يعرفها لأنها موجودة، وإنما هي موجودة لأنه يعرفها" (Augustinus, 2001, XV.13.22).

هناك فارق آخر جوهري وأساسي بين كلمة الإنسان الداخلية وكلمة الله، وهو يتعلق بتحديد مفهوم التفكير وعلاقته بالأفكار المتولّدة عن معرفة الأشياء، فقد بيّنا أن الكلمة الداخلية هي الفكرة التي تتولّد في العقل الإنساني نتيجة للعلم الموجود فيه، لذا فهي –الكلمة الداخلية– تُعبّر عن أسلوب التفكير الذي يُعدُّ الحركة الداخلية للعقل الإنساني. إلا أن التفكير الذي يقصده أوغسطين هنا ليس إبراز محتوى الذاكرة فقط، وإنما هو القدرة العقلية التي تمكّن المرء من الانتقال من محتوى معرفي إلى محتوى معرفي آخر، لذا فإن التفكير متحرك ومتغيّر؛ منحرك من حيث إنه يتنقل بين المحتويات المعرفية واحداً تلو الآخر، ومتغيّر لأن شكله يتغيّر وفقاً لتنقله بين محتويات الذاكرة المعرفية، أو عندما ينتقل من حالة عدم وجود محتوى إلى التفكير بشيء ما نتيجة لتشكّل محتوى معرفي جديد فيه، والمستوى العقلي للتفكير يتحدد من خلال قدرة العقل على الاستدلال (Brachtendorf, 2000, 278). بالمقابل فإن الله لا يفكر بالمعنى السابق، فالشروط التي تخضع لها الكلمة الداخلية عند الإنسان لا تتوافق مع التفكير عند الله الذي لا ينتقل من محتوى معرفي إلى آخر بشكل متتالٍ ويغيّر صيغته أو شكله، بل يُعبّر التفكير الإلهي عن الآب بكليته وشموليته في كل زمان، فهو ثابت ثبات علم الله. بالإضافة إلى ذلك فإن كلمة الله (verbum dei) تخبر كل شيء مرة واحدة ودفعة واحدة، وتبقى كما هي لا يعتريها التغيّر أو التبدل، وبناءً على ذلك فإن ابن الله يُسمى "كلمة الله" وليس "فكرة الله" (Augustinus, 2001, XV.16.25).

بقي هناك اختلاف جوهري وأساسي بين كلمة الله وكلمة الإنسان الداخلية، وهو قابلية الأخيرة للخطأ وإمكانية عدم مطابقتها للعلم المخزون في الذاكرة من ناحية، ومن ناحية ثانية وجود إمكانية الكذب من حيث عدم مطابقة الفعل الإنساني أو الكلمة المنطوقة

[١٢]– هذه القضية عالجها أوغسطين في الكتاب الخامس من مؤلفه (**De trinitate**) في سياق نقده للمقولات الأرسطية، حيث يبيّن أنه لا يمكن التمييز بين الله وصفاته ما ميّز أرسطو بين الجوهر والأعراض، وإنما صفات الله هي عين ذاته.

للعلم الموجود في الذاكرة. أما بالنسبة لكلمة الله فلا مجال للكذب نهائياً وإمكانية الخطأ معدومة، فلا يمكن لكلمة الله ألا تكون مطابقة لعلمه من ناحية، ومن ناحية ثانية تُعبّر عن هذا العلم كاملاً؛ لذا فهي صادقة دائماً (Augustinus, 2001, XV.15.24).

## الخاتمة:

خلص البحث إلى النتائج الآتية:

١- لا بدَّ من الإشارة إلى أننا أمام سويتيّن معرفيتيّن تقابلان نوعين من الحديث؛ السوية الأولى هي عملية استحضار المعرفة وجعلها موضوعاً للتفكير الداخلي، وهنا يتكوّن ما نسميه بالحديث الداخلي أو القلبي، وهو مرحلة ما قبل اللغة التي تؤسس لأي فعل لغوي محدد لاحقاً. السوية الثانية هي عملية عرض المعرفة وتقديمها هنا يأخذ الحديث القلبي الداخلي غير المنطوق شكلاً لغوياً مادياً يتمثّل في الكلمات المنطوقة التي هي في الحقيقة فعل مادي يعبّر عن عملية فكرية داخلية.

٢- بالرَّغم من أسبقية الكلمة الداخلية على الكلمة الخارجية، إلا أن الكلمة الداخلية لا يمكن أن تنشأ دون معرفة الأشياء، لذا فإنّ هناك أسبقية أنطولوجية تمتاز بها الموجودات على الكلمة الداخلية، ولولا معرفة الموجودات لما نشأت الكلمة الداخلية، ونلاحظ هنا أننا أمام ثالوث هو: الشيء–الكلمة الداخلية–الكلمة الخارجية، فمعرفة الشيء تؤسس لنشوء الكلمة الداخلية، والكلمة الخارجية (لغة كانت أم فعلاً) تسمح للكلمة الداخلية أن تُعبّر عن نفسها وتصبح معروفة.

٣- إن معالجة أوغسطين لمسألة الكلمة الداخلية يؤسس معرفياً لنشوء اللغة بشكل عام، فضرورة وجود اللغة ينشأ من ضرورة التعبير عن الفكرة وإيصالها إلى الآخر، والفكرة هي ذاتها الكلمة الداخلية التي تنتظم في سياق الحديث القلبي. هذا الحديث قائم على مجموعة من العلاقات التي تجمع بين الأفكار التي تبقى على شكل ماهيات مجرّدة في العقل، والتي تجد تمظهرها في الكلمات المنطوقة أو المكتوبة لتأخذ شكلاً مادياً تدركه الحواس ويُسهمُ في نشوء كلمة داخلية عند المتلقي مشابهة لتلك الموجودة في عقل المتحدّث.

٤- تُعدُّ الكلمة الداخلية أساس السلوك الإنساني ومعياره، كما أنها الأساس في نشوء اللغة، والكلمة الداخلية صادقة دائماً كوّنها تطابق العلم الذي نشأت عنه، وإمكانية خطئها تعود إلى العلم ذاته. بالمقابل فإن الحديث عن كذب الكلمة الداخلية غير وارد، والكذب يكون في الكلمة الخارجية أو السلوك الذي يعارض الكلمة الداخلية أو يناقضها، والمعيار في ذلك هو مبدأ المطابقة الذي استقاه أوغسطين من الإنجيل، فكما أنه ينطبق على الكلمة الداخلية فإنه ينطبق كذلك على اللغة المنطوقة أو الفعل الإنساني، فما يطابق الكلمة الداخلية صادق وما يناقضها كاذب، والكذب فعل إرادي قصدي، أي إنّ المرء يعرف ما هو صحيح ويقول أو يفعل عكسه، فالأفعال والأقوال الإنسانية تتأسس في العقل وتقوم على الأفكار الموجودة فيه، لذا فإن أفعال الإنسان وأقواله هي أفعال قصدية واعية.

٥- إن المقارنة بين الكلمة الإلهية والكلمة الإنسانية تبيّن أن فعل الخلق (إلهياً كان أم إنسانياً) لا بدَّ أن يكون مسبوقاً بفكرة أو كلمة داخلية تتجلى في الفعل الناتج عنها، إلا أن الفارق بين الكلمة الإلهية والكلمة الإنسانية يكمن في العلم ذاته الذي نشأتا عنه، فعلم الله ثابت أزلي لا علة له وهو علة وجود الموجودات كلّها، ويترتب على ذلك أن كلمة الله صادقة دائماً و لا مجال للخطأ فيه كونها ناتجة عن علمه وتطابقه، في حين إنّ العلم الإنساني معلول لوجود الأشياء، لذا فهو عرضة للتبدل والتغير ممّا يجعل من إمكانية الخطأ فيه واردة، وينتج عن هذا أن الكلمة الإنسانية –وإن كانت تطابق العلم الموجود في العقل– غير صحيحة دوماً.

**التمويل:**

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل(٥٠١١٠٠٠٢٠٥٩٥).

## المصادر والمراجع:


١. أوغسطينوس. (١٩٩١). اعترافات القديس أوغسطينوس. ترجمة: الخوري يوحنا الحلو. ط: ٤، دار المشرق، ٣٢٧.

٢. حنفي، حسن (١٩٨١). نماذج من الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط "أوغسطين، أنسيلم، توما الأكويني، دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٩١.

٣. كوبلستون، فريدرك. (٢٠١٠). تاريخ الفلسفة (من أوغسطين إلى دانز سكوت) "المجلد الثاني، القسم الأول"، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام وإسحاق عبيد، ط: ١، المركز القومي للترجمة، ٤٠١.

٤. مراد، ياسر (٢٠٢٢). نظرية الإشراق عند بونافنتورا، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، ٣٨(٤): ١١٥-١٤٣.

٥. وَماركوس، ترانثي. (١٩٩٧). مقالات في فلسفة العصور الوسطى، ترجمة: دكتور ماهر عبد القادر، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٥.

6. Augustine (1975). De dialectica, ed. Pinborg, translated with introduction by Darell Jackson, Dordrecht and Boston, 151.
7. Augustinus (1913). Vorträge über das Evangelium des hl. Johannes, übersetzt und mit einer Einleitung versehen von Th. Specht, Bd. I, Kempten und München, 368.
8. Augustinus (1960). Die Größe der Seele/De Quantitate Animae Liber Unus, übers. von Carl Johann Perl, Paderborn, 131.
9. Augustinus (1982). De beate vita/Über das Glück, Lateinisch/Deutsch, Übersetzung, Anmerkungen und Nachwort von I. Schwarz-Kirchenbauer und W. Schwarz, Stuttgart, 109.
10. Augustinus. (1972). Über die Ordnung, Eingel. übers. und erl. Von Ekkehard Mühlenberg, In: Philosophische Frühdialoge. Gegen die Akademiker. Über das Glück. Über die Ordnung. Eingel. übers. und erl. von B. R. Voss, I. Schwarz-Kirchenbauer, W. Schwarz und E. Mühlenberg, Artemis&Winkler Verlag, 217-365.
11. Augustinus. (1976). Die Retractationen in zwei Büchern/Retractationum Libri Duo, in deutscher Sprache von Carl Johann Perl, Paderborn, 256.
12. Augustinus. (1983). De vera religione/Über die wahre Religion, Lateinisch/Deutsch, übers. u. hrsg. Von W. Thimme, Stuttgart. 230.
13. Augustinus. (2001). De trinitate (Bücher VIII-XI, XIV-XV, Anhang: Buch V), Lateinisch/Deutsch, neu übersetzt und mit Einleitung herausgegeben von J. Kreuzer, Hamburg: Meiner, 415.
14. Augustinus. (2002). Die christliche Bildung (De doctrina christiana), Übersetzung, Anmerkungen und Nachwort von K. Pollmann, Stuttgart, 288.
15. Borsche, T. (1986). „Macht und Ohnmacht der Wörter. Bemerkungen zu Augustins ‚De magistro‘, in: Mojsisch (1986), S. 121-152.
16. Brachtendorf, J. (2000). The structure of the human mind according to Augustine "self-reflection and knowledge of God in De Trinitate", translated by Aaron Looney, Felix Meiner Verlag, Hamburg, 339.
17. Schulthess, P. (2002), Sprechen, Erkennen und Lehren/Lernen in De Magistro. In: Fuhrer, Th. (Hrsg.), Augustinus De magistro – Der Lehrer, Zweisprachige Ausgabe, Paderborn, München, Wien, Zürich, 26-88.